

١٢- الخمر

وكانت الخمريات من أكثر فنون الشعر ذيوغاً بين شعراء الأندلس، مخالفين في ذلك التحريم الديني للخمر. بيد أن ما كانوا يشربونه لم يكن كله من العنب، بل عرفوا صنوفاً أخرى من العصير كان شربها حلالاً بشروط، أو لم ينته الناس في أمرها إلى رأى. وكانت عادة الشاربين أن يجتمعوا على الكئوس في الصباح (الصباح) أو مساءً (الغبوق)، وكانوا يرددون الخمر ويمزجونها بالماء. وأغلب ما يكون اجتماعهم للشراب في قاعة واسعة أو في رحبة الدار أو في موضع من مواضع اللهو في الرياض، وكان شطاً الوادى الكبير عامرين بالمنازة ومواضع الشرب. قال أبو الوليد الشقندى: «وزيادته على الأنهار كون ضفتيه مطررتين بالمنازة والبساتين والكروم والأنشام، متصل ذلك اتصالاً لا يوجد على غيره. وأخبرنى شخص من الأكياس دخل مصر - وقد سألته عن نيلها - أنه لا تتصل بشطيه البساتين والمنازة اتصالها بنهر إشبيلية، وكذلك أخبرنى شخص آخر دخل بغداد. وقد سعد هذا الوادى بكونه لا يخلو من مسرة، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر، لانه عن ذلك ولا منتقد، ما لم يؤدّ السكر إلى شرّ وعردة»^(١)، فكانت مجالس الشراب تدور في قوارب تتهادى على صفحة الماء بأشرعتها البيضاء، وقد أبدع في صفة ذلك القاضى أبو الحسن بن لبّال - حاكم شريش - بقوله:

بِنَفْسِي هَاتِيكَ الزَّوَارِقُ أُجْرِيَتْ كَحَلْبَةِ خَيْلٍ أَوْلَا ثُمَّ ثَانِيَا
وَقَدْ كَانَ جَيْدُ النَّهْرِ مِنْ قَبْلِ عَاطِلَا فَأَمْسَى بِهِ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ حَالِيَا

(١) أبو الوليد الشقندى: «الرسالة» برواية المقرئ: «نفع الطيب»، ج٢، ص ١٤٣.

عَلَيْهَا الزَّهْرُ الشَّمْعُ زَهْرُ كَوَاكِبٍ تُخَالُ بِهَا ضَمَنَ الْغَدِيرِ عَوَالِيَا
وَرُبَّ مَثَارٍ بِالْجَنَاحِ وَآخِرٍ بِرِجْلِ يُحَاكِي أَرْبَابًا خَافَ بَارِيَا^(١)

وكان يحدث. شيء شبيه بذلك على ضفاف نهر إبره أيام دولة بني هود في سرقسطة.

وكان من عادة الشعراء أن يوجهوا الدعوة إلى مجالس الأئس في رقاع منظومة، ومن ذلك قول عبد العزيز بن القبطورنه يستدعى:

دَعَاكَ خَلِيلِكَ وَالْيَوْمُ طَلُّ وَعَارِضُ خَدِّ الثَّرَى قَدْ بَقَلُّ
لِقَدْرَيْنِ فَاحَا وَشَمَامَةٍ وَإِيرِيقِ رَاحٍ وَنَعْمَ الْمَحَلُّ
وَلَوْ شَاءَ زَادَ، وَلَكِنَّهُ يُلَامُ الصَّدِيقُ إِذَا مَا احْتَفَلُ^(٢)

ولم تكن تلك المجالس مجرد اجتماعات للشراب، وإنما حلقات شعرية أدبية، وكانت توضع أمام الندماء مناخذ صغيرة خفيفة الحمل، توضع عليها أطباق حافلة باللحم الطرى وأطايب الطعام، ثم يوضع أمام كل ضيف طبق وفاكهة وكأس وإيريق^(٣)، وفي وسط المجلس تصفُّ القناديل وتلقى أشعتها على أصص النرجس وأوراق النبات البديعة وأكوام الفاكهة المتألقة. وكان الساقى المنسرح القوام يمر بين السَّمَارِ يصب لهم في الأكواب نبيذاً أبيض من أباريق بلورية تبدو وكأنها «جمان ضم ذهباً سائلاً» أو بأوان جميلة ملئت خمراً أحمر يصب منه في الكئوس؛ وتصافح أذن الساقى عبارات الغزل يضيفها عليه السَّمَارِ. وعندما

(١) على بن سعيد: «رايات المبرزين»، ص ٢٣. وقد توفى أبو الحسن بن لبّال في عام (٦٨٣هـ/١٢٨٤م). انظر عنه: الضبي: «بغية الملتصق»، رقم ١٨٧٤. ولم ترد الآيات في النص وإنما أشير إلى رقمها في المختارات وهو ٣٦، وترجمها المؤلف كذلك في ترجمته للرايات: cf: E. G. Gómez, El libro de las banderas, p. 153.

(٢) ابن خاقان: «قلائد العقيان»، ص ١٧٢، ١٧٣.

ولم ترد القطعة في النص، بل أشير إلى رقمها في المختارات وهو ١٦.

(٣) راجع الوصف الذي يقدمه الجهشيارى - في كتاب «الوزراء»، ص ٢٤٠ - للأدبة.

ينصبُّ الشراب من فم الإبريق يبدو للسَّمَّار وكأنه «عنى بطة فى فمها عقيق»، وكان الحبيب الطافى على وجه الكئوس يلهم الشعراء أخيلة وتشبيهات بارعة. وكان المجلس ينقضى بين تقارض الشعر وارتجاله، يتخلل ذلك بين الحين والحين شدة جارية مغنية يصاحبها عزف العود والطنبور والقيثارة، وتترجح أحاسيس السَّمَّار بين زهر الأحلام وشطحات السكر ومشاعر الهوى، ويصور لنا ابن هانىء الإلبيرى مجلساً من هذه المجالس أحسن تصوير فى قصيدته المعروفة بقصيدة النجوم:

الْبَلْتَنَا إِذْ أَرَسَلْتُ وَارِدًا وَحَفَا	وَبَتْنَا نَرَى الْجُوزَاءَ فِى أُذُنِهَا شَتَفَا
وَبَاتَ لَنَا سَاقِي يَصُولُ عَلَى الدُّجَى	بَشَمْعَةٍ صَبِيحٍ لَا تُقَطُّ وَلَا تُطْفَأُ
أَغْنُ غَضِيضٍ خَفَّفَ اللَّيْنُ قَدَّهُ	وَأَثَقَلَتِ الصَّهْبَاءُ أَجْفَانَهُ الْوَطْفَا
وَلَمْ يُبْقِ إِرْعَاشُ الْمُدَامِ لَهُ بَدَأُ	وَلَمْ يُبْقِ إِعْنَاتُ الثَّنَى لَهُ عَطْفَا
يَقُولُونَ حَفَفُ فَوْقَهُ خَيْرَانَةٌ	أَمَا يَعْرِفُونَ الْخَيْرَانَةَ وَالْحَقْفَا
جَعَلْنَا حَسَابَانَا ثِيَابَ مَدَامَنَا	وَقَدَّتْ لَنَا الظُّلْمَاءُ مِنْ جِلْدِهَا لُحْفَا
فَمَنْ كَبَلُو نُدْنَى إِلَى كَبَلِ هَوَى	وَمِنْ شَفَّةٍ تُوْحَى إِلَى شَفَّةٍ رَشْفَا
بِعَيْسِكَ نَجَّةٍ كَأَسْهُ وَجْفُونُهُ	فَقَدْنَبَهُ الْإِبْرِيْقُ مِنْ بَعْدِ مَا أَغْفَى
وَقَدْ فَكَّتِ الظُّلْمَاءُ بَعْضَ قُبُودِهَا	وَقَدْ قَامَ جَيْشُ اللَّيْلِ لِلْفَجْرِ وَاصْطَفَا
وَوَلَّتْ نُجُومٌ لِلثَّرِيَا كَأَنَّهَا	خَوَاتِمٌ تَبْدُو فِى بَنَانٍ يَدُ تَخْفَى
	...إِلخ (١)

وينقضى الليل على ذلك هزيعاً بعد هزيع حتى يطلع الفجر، فكانت ليالى الأندلس صاحبة لا تهجع، حتى لقد شكوا بعض من وفد على الأندلس من المشاركة عدم استطاعتهم النوم هناك.

(١) هلى بن سعيد: «آيات البرزين»، ص ٥٦، ٥٥. وهذه الآيات مطلع قصيدة مدح الشاعر بها جعفر بن على.